" عتبات النّص" في رواية " لاروكاد " لعيسى شريط

مقاربة سيميائية

الاستاذ : عمار بن لقريشي

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة المسيلة

ملخص رواية لاوركاد:

"لاروكاد" نهر يجري بعفوية الطبيعة ليصب في محيط الواقعية حاملا معه أصداء المدينة، وأخبار الأزقة، وعلى جنباته بقايا حب وأشلاء عفة ضائعة.

نهر معبأ بالهموم والمآسي يجري في دروب وعرة، ومنحدرات عميقة مؤديا أغنية الحياة (فالرواية تحكي يوميات حي "لاروكاد" بكل تناقضاته، وظواهره من حرب التحرير وصولا إلى زمن الانفجارات، وبداية ظهور ما عرف بالحركة الإسلامية السياسية في الشارع الجزائري.) (1).

يقول "عيسى شريط" (في الحقيقة فإن الرواية متشبعة الأحداث والشخوص فهي تحتوي على الحدث الاجتماعي، والحدث السياسي، والحدث التاريخي أحيانا اخترت لها زمن ما قبل أحداث أكتوبر 1988، وحاولت من خلالها تفسير بعض الظواهر السائدة في المجتمع الجزائري، وذلك اعتمادا على مصدرها التاريخي فهناك ظواهر نعيشها الآن لها أسباب تاريخية، وتحديدا في فترة ثورة التحرير الكبرى وما قبلها بقليل، كل هذه الأحداث وظفتها في الرواية.) (2).

كما تعد هذه الرواية عملية بحث في الأسباب التي أدت بمجتمع كالمجتمع الجزائري إلى الوصول إلى طريق مسدود في حياة أفرادها وتناقضاتهم النفسية والاجتماعية في حي أو زقاق يحمل من الدلالات والإيحاء الرمزي الشيء الكثير ابتداء من ذلك الطريق الحجري المسمى " طريق لاروكاد" الذي شكل قدر الحي في تكوين مدينة نظرا لموقعه الاستراتيجي، هذا الحي الذي اتخذ اسما آخر أشتهر به هو " الحي اليهودي" الذي كان أكثر سكانه من اليهود، الذين اتخذوا من التجارة مهنة، ونسبوا إلى البيت لهم هو بيت "شيش بورتيش". هؤلاء اليهود الذين غادروا البلاد على مضض غداة الإعلان عن استقلال الجزائر.

لقد عني الكاتب منذ الأسطر الأولى للرواية بتقديم شخصياته وملامحها الجسمية والاجتماعية والنفسية.

بطل هذه الرواية هو "التهامي" الذي ترتبط جميع أحداث الرواية، تقريبا، به وهو شخصية مؤثرة على مجتمعها في حي "لاروكاد" لمكانتها الاجتماعية والمادية، إلا أنها بقدر ما كانت تعطي، كانت تأخذ الكثير.

و تزاحم هذه الشخصية في فضاء الرواية شخصية أخرى هي زوجته " جميلة " ذات الستة والعشرين ربيعا، وهو " التهامي"ابن الستين خريفا.

حين ارتبطت به، وجد "شويحة" - الشخصية القلقة والباحثة عن الثراء - في ذلك فرصة لتحقيق أغراضه الانتهازية، خصوصا وأن "جميلة" كانت تعشقه منذ الصغر، بالإضافة إلى علاقة القرابة فهي ابنة عمه. حيث

أدى دورا كبيرا في إقناع "جميلة" من الزواج بـ "التهامي" واعدا إياها بالزواج بعدما يتمكنان من تهريب بعض ماله لضمان مستقبلهما.

وهناك كذلك علاقة "التهامي" بـ"سحنون" الشاذ، التي أدت بهما إلى نهاية غير سعيدة.

"سعاد" بنت "التهامي" التي تعيش حظها السيئ مع أخيها "خالد" بسبب المعاملة السيئة لزوجة الأب "جميلة"، هذه القسوة في المعاملة جعلتها تفكر أحيانا في الفرار، وهجر كل شيء، لكن رعايتها لأخيها تكبلها، وهي تربطها أيضا علاقة بريئة بـ"إسماعيل" ابن الجيران، وزميل الدراسة بالثانوية، هذا الشاب الأنيق الوسيم الذي يعتني بمظهره كثيرا، ويعد من أهم قضاياه.

وشخصية "حسين المسرح" الذي يساعده ضابط الشرطة على الهرب خارج حدود الوطن لأنه متهم بممارسة النشاط السياسي المعارض، وهو صورة للمثقف الجزائري الذي يتخذ من الهجرة القسرية، واللجوء السياسي حماية لحياته.

شخصية "موسى السوكارجي" ، وعلاقته بـ"الهوارية" المومس التي جاءت من الغرب الجزائري إبان ثورة الثورة التحريرية إلى هذا الحي. وشخصية "علي القهواجي" ، و"ثامر لحدب" الكاتب العمومي على الآلة الراقنة، وشخصية "الحاج ساعد" الإسكافي ورائحته الكريهة، التي غزت محله، وشجاره الدائم مع الإمام، هذا الإمام الذي راودته يوما "الهوارية" على نفسها فرض، ومن السكان من كان يعتقد بأنه خلا بها عشرات المرات.

تلك هي ملامح الشخصيات مع نفسها، وفي علاقتها مع بعضها البعض.

2- المفاتيح " عتبات النص"

2- 1- التجنيس:

الدخول إلى كل نص يجب تتبع المسلك الأول في ذلك وهو البحث عن تجنيسه والحقيقة أننا نجد هذا التجنيس تكرر مرتين، الأولى كانت على الغلاف، والثانية كانت في الصفحة التي بعدها، وبهذا فتحت لنا إحدى البوابات للولوج إلى النص وبذلك كفانا "عيسى شريط" مؤونة البحث عن جنس نصه (لأن من أكثر العوامل فاعلية في تحديد أفق التلقي، والاستجابة الأولى للنص الفني، مسألة التجنيس وإستراتيجيات التسمية النوعية التي تجلب إلى عملية التلقي مجموعة من الخبرات النصية والتقاليد الأدبية، والآفاق التأويلية والتناصية، والتوقعات التي يتحقق بعضها ويجهض بعضها الآخر.) (3).

و يعد التجنيس وحدة من الوحدات الجرافيكية، فهو الذي يساعد القارئ على استحضار أفق انتظاره، كما يهيّئه لتقبل أفق النص، ويربط هذا النص المجنس بالنصوص الأخرى التي من نوعه في ذاكرتنا النصية، حيث إننا نتلقى النص من خلال هذا التجنيس، ونعقد معه عقدا للقراءة.. وإذا كان تلقي أي جنس أدبي يتألف من اتفاق معقود بين المؤلف والقارئ، فهو يرتبط بنوعية هذا الجنس على وجه التحديد،ومما سبق فإن " لاروكاد" نص قد سبق في النوع أو الجنس وربما هو من الجنس الذي كاد يطغى في زمن الكاتب، والذي يكاد يحتل قلوب القراء لما فيه من إغراء وغواية (إنه يستدرجنا لندخله من هذا الموضع المفتوح على مصراعيه، حتى نستطيع فهمه من جهة، نستطيع التخلص من هذا القلق المصاحب لتلقي النصوص في تاريخ الأدب من جهة أخرى)(4).

نصوص تفاعلت مع أوضاع العصر فجاءت مرآة لما يجري فيه من أحداث مختلفة عكست الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي الذي عاشته الجزائر قبيل أحداث أكتوبر 1988، والعشرية السوداء التي تلتها وكانت كلها فتنة واضطراب وقلق مصيري.

كما هي متفاعلة مع الاتجاهات الغربية الحديثة في أسلوبها، وطريق تعبيرها وسردها للأحداث .

بعد هذا سنحاول أن نقترب خطوة أخرى من النص لنتودد إليه من خلال دراسة النصوص المصاحبة له، التي تعقد معه صلات الود،و التي تعلن سيره وتكشف عنه أو عن أسراره، حيث أن انتقالنا إلى نص الرواية يحتم علينا الوقوف أمام عتباته فهي المدخل الطبيعي إليه (و عتبات النص هي الإرشادات التي تهيئ القارئ لتلقي النص، وتوجهه إلى الطريق الصحيح، كما أنها بوابات التواصل التي تمكن القارئ من الانفتاح على تركيب النص وأبعاده الدلالية من جهة، وهي العناصر المؤطرة لبنائه، ولبعض طرائق تنظيميه من جهة أخرى، أي أنها تحمل في طياتها وظيفة تأليفية تحاول كشف إستراتيجية الكتابة.) (5)

2- 2- الغلاف:

هو أول ما نقف عليه،(الشيء الذي يلفت انتباهنا بمجرد حمل الرواية، إنه العتبة الأولى من عتبات النص، تدخلنا إشاراته إلى اكتشاف النص بغيره من النصوص.) (6)

وغلاف رواية "لاروكاد" يتكون من ثلاث وحدات رسومية (جرافيكية)، تحمل عدة إشارات دالة، الوحدة الأولى صورة عبارة عن مائدة بلون أخضر باهت عليها جرة مغروسة فيها نبتة يابسة الأوراق، وأمام المائدة نافذة مظلمة، وتحتها بركة من الدماء، والوحدة الثانية هي اللون، وسنتناول هاتين الوحدتين بالدراسة تحت هذا العنوان، في حين سنؤجل دراسة الوحدة الثالثة إلى العنوان اللاحق كونها وحدة كبرى تستقل بذاتها.

2- 2- 1- الصورة:

لوحة فنية يظهر أنها من اختيار رابطة الاختلاف، وهي تعكس مجموعة من الإشارات الرمزية، فالجرة ترمز في ناحية من نواحيها إلى الحضارة، إنها نورانية إذا تحكمنا فيها وسيرناها كما نريد، لا كما تريد، وإلا فقدنا الهوية وتهنا تيه بني إسرائيل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، . وقد يكون الاحتمال الصائب . أن الجرة هي الجزائر، ومن حيث هي كذلك، فإن الجزائر بيضاء كالحمامة متحضرة في الأعماق رغم وابل الفساد الذي سلط عليها (الأوراق اليابسة تشير إلى هذا الفساد)، والذي مهد لعشرية الدم (بركة الدم تشير إلى تنبؤ الرواية بمرحلة الدم)، كالمشكاة أو الزيتونة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

كما يشد انتباهنا . في الغلاف . اسم المؤلف الذي بأسفل الصورة، وكأن "عيسى شريط" يشير هنا إلى أنه جزء من المشهد، إنه المثقف العضوي الوظيفي الذي لا يكتفي بالمشاهدة، بل يحاول المشاركة في حركة التغيير والكشف عن أسباب الانحراف، وإدانة المتسببين في انهيار المجتمع الجزائري.

إن "عيسى شريط" يجمع هنا ثنائية تختصر زمن القصة في انتظار قراءة لزمن السرد.

2- 2- 2- اللون:

أول ما يطالعنا سيطرة اللون الأبيض على مساحة ورقة الغلاف، وكذا بروز اللونين الأسود والأحمر بوضوح، الأول في كتابة عنوان الرواية واسم الناشر والثاني في كتابة اسم الروائي وجنس النص، وقد يكون ذلك رمزا لشيء ما فالرموز . ومن بينها الألوان . (أصبحت مستعملة في شتى ميادين الحياة ويشترط في توظيفها المعرفة الجماعية للرمز ودلالته.) (7)

ونظن أن الأسود الفاقع الذي يصر على الحضور داخل البياض هو دلالة على الإرادة في الكتابة وفي عدم السكوت، في عدم خنق الذاكرة المكبوتة داخل " حسين المسرح " إلى هذا الحد، بل في التخلص من الذاكرة السوداء سواد المداد بإفراغها في مساحة الورق ولفضها:(الساعة الآن تغازل منتصف الليل..مازال "حسين المسرح" يحاول استدراج نفسه للكتابة..منذ ساعات طويلة وهو يحاول التركيز لينسج خيوط مسرحيته..)(8)

لاسيما وأن اللون الأسود/لون الكتابة - كما يرى النفسيون - يدل على نفسية ثائرة على الظروف، وعلى مبالغة في البحث عن المطلق (9)، وهو الاتجاه الواضح عند " حسين المسرح".

وإذا كانت الكلمات حرة منطلقة ثائرة نزقة، وتجلجل بالحقيقة على الرغم من مرارتها فإن الرسم محايد، ويمكن أن نجد دلالة ذلك حاضرة إذا أولنا سبب اختيار وضع صورة صغيرة في أعلى الغلاف، صغيرة إذا ما قورنت بحجم الصفحة التي استغرقها البياض الحر، وداخله البياض الواضح الذي لا يقف في وجهه شيء، كما أن الصورة جاءت محددة لا يمكن تجاوز حدودها.

أما اللون الأحمر الذي كتب به اسم المؤلف، وجنس النص، فمن مظاهره حسب النفسيين، أنه يتميز (بالنزواتية، وإتباع الجنس، والسيطرة والرغبة في المنافسة)(10)،و لعل الروائي يريد أن يتحدى الواقع الاجتماعي والثقافي، ويقدم نفسه قلما جديدا مشبعا بالرغبة في إثبات الذات، وتحقيق مكانة مرموقة بين جيله من كتاب الرواية، هذا الجنس الأدبي المهيمن.

2- 3: العنوان

تعد دراسة العنوان- سواء في الشعر أم في القصة- معلما بارزا من معالم المنهج السيميائي على خلفية أن العنوان هوية النص التي يمكن أن تختزل فيها معانيه المختلفة.ليس هذا فحسب ،بل حتى مرجعياته وإيديولوجيته ومدى قدرة مبدع النص على اختيار

العنوان المغري والمدهش،و الممثل لنصه. لهذا السبب عد العنوان من أهم عناصر النص الموازي(Le Paratéxte)التي تسيج النص،و كذا المدخل الذي يلج من خلاله القارئ إلى حظيرة النص (إذ يحتل العنوان الصادرة في الفضاء النصي للعمل الأدبي فيتمتع بأولية التلقي) وطالما أن السيميائية لا تبحث عن الدلالة فحسب،بل أيضا عن طرائق تشكيلها، فان الدارس للعنوان- بالإضافة إلى بحثه عن الدلالة- يحفر بنية العنوان ومضامينه للوقوف على طريقة مبدع النص في صنع عنوانه(ولا مناص للدارس هنا من اللجوء إلى التأويل،لان العنوان - حسب امبيرتو ايكو- هو للأسف منذ اللحظة الأولى التي نضعه فيها مفتاح تأويلي)و الرواية موضوع الدراسة يحيلنا عنوانها"لاروكاد" من أول وهلة إلى أن أصل المصطلح فرنسي عرب ودخل إلى الاستعمال الدارج في عهد الفترة الاستعمارية وبقي يستعمل إلى الآن ويعني(الطريق الرابع الذي أنجزته قوى الحلف الأطلسي أيام الحرب العلمية الثانية للمرور عبر الجزائر انطلاقا من المغرب،و الالتحاق بتونس،و منها صحراء ليبيا،لمحاصرة ثعلب الصحراء"رومل"ROMMEL الذي الحق بجيوشهم الهزائم النكراء... وبما أن الموقع آنذاك، أضحى استراتيجيا تحيط به عدة تجمعات سكانية،على الرغم من أن كل سكانه من البدو الرحل،بني مركز ربط ومراقبة تابع لمصالح الطرق والجسور،وكان المسؤول على ا لمركز يهوديا سرعان ما التحق به أفراد أسرته،وبدأ توافده اليهود إلى المنطقة ،أسسوا حيهم الذي كان وما زال يعرف بحارة اليهود أو حي"لاروكاد".. وحدهم اليهود كانوا يسيطرون على التجارة والخدمات)

العنوان كما يطرحه الكاتب في الصفحات الأولى من روايته يظهر مكتنزا ومفخخا مختالا، فما هي دلالته من حيث هو نص مواز للرواية ، وماهي طريقته في أداء الدلالة؟.

بالنظر إلى المعنى المعجمي الذي تكفل الروائي بتقديمه فان كلمة"لاروكاد" تدل عموما على ثلاثة مقاصد :

1. وفق المرجعية الآنية للكلمة، فإنها تختالنا، فتظهر أنها اختيرت بقد تحقيق هدف إشهاري للعنوان.
2. أنها الطريق الرابع الرابط بين الغرب والشرق
3. أنها الحي/المدينة الذي كان مسرحا لإحداث الرواية.

لكن هذه المعاني، وإن كان العنوان يحملها كلها ،إلى أن تتكلس –أن صح التعبير- لتعطي دلالة مهيمنة على الرواية، بالنظر إلى أن كلمة"لاروكاد"لم تعد تعني المعني الظاهر لها فقط،ولم تبق كلمة عادية محايدة،بل أضحت رمزا للفساد، والقذارة الاجتماعية ،و التجمعات السكانية المؤسسة على نمط لا يتلاءم وبعدها الحضاري مما يجعلها خاوية دائما من الأبعاد الأساسية المكونة للمدن المتحضرة ،مستقطبة لكل فكر دخيل ملفوظ من الوسط الذي تأسس فيه،أنها رمز للعذاب والقهر والاغتصاب وغياب حرية الاختيار.أنها موقف إيديولوجي يعلن نفسه من خلال تعرية مزوري

تاريخ الثورة الجزائرية، والمستفيدين من الانفتاح الاقتصادي في ظل البيروقراطية الإدارية،و المتسترين تحت عباءة الدين لإيهام الناس بالتغيير العادل،مع طمسهم لكل معالم الجمال والحرية كما يتقاطع مفهوم "لاروكاد" بمفهوم الذاكرة من خلال الإيغال في الماضي القريب والمتوسط والبعيد ،وهنا يلتبس زمن الخطاب في الرواية بهذا المنطق فيغدو زمنا دائريا أو حلزونيا فتصبح الرواية سردا أنيا سابقا وسردا لاحقا.

قائمة المصادر والمراجع:

(1)زهية.م:الاطاحة بسلطة المثقف ،الشروق اليومي، عدد1341،الاربعاء 2005/03/30

(2)عبدالرزاق طاهير:انه تتويج لمسيرة طويلة ثرية بالعمل،صوت الأحرار،عدد1766، 2012/03/22.

(3)حسن محمد حماد:تداخل النصوص في الرواية العربية، ص111

(4)المرجع نفسه:ص56.

(5) المرجع نفسه: ص148.

(6)عبد المالك مرتاض:تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق) ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون1995، ص272 .

(7)جديث لازور :علم الاتصال،دار حلب للنشر،ص86 .

(8) عيسى شريط:لاروكاد، منشورات الاختلاف ،ط 1 ،2004 ، الجزائر.

(9)ينظر:محمد احمد النابلسي،الاتصال الإنساني وعلم النفس ،دار النهضة العربية بيروت ص170.

(10)المرجع نفسه:ص170 .

(11)شادية شقروش:سيميائية العنوان في' مقام البوح'لعبد الله العشي،محاضرات الملتقى الوطني الأول السيميائية والنص الأدبي "7-8نوفمبر 2000،منشورات جامعة بسكرة،ص271 .

(12)محمد الهادي المطوي:شعرية عنوان كتاب"الساق في ما هوالفارياق"مجلة عالم الفكر، مجلد 28 عدد01يوليو/سبتمبر 1999، المجلس الوطني للثقافة والعلوم،ص76 .

(13)الرواية:ص16.